الفصل الثاني عشر:

قضينا كل لحظة فراغ في اليومين الذين قضيناهما في حلب في تغيير البغالة، وقد كان إجراءً ضرورياً ولو كان مؤسفاً. في إنطاكية ستصل إلى نهاية السكان الذين يتكلمون العربية، فحبيب وأبوه لا يعرفان أي كلمة من اللغة التركية، وميخائيل يعرف بضع كلمات أساسية مثل: ـ بيض، وحليب، وقرش. وأنا لا أعرف إلا أكثر من ذلك بقليل، وأنا أنفر من الاندفاع بسرعة بمجوعتي الصغيرة في بلاد غير قادرين فيها على أكثر من السؤال عن الذي لا غنى عنه من الحاجات الضرورية أو السؤال عن الطريق.

إن الحديث عن الجدارة الملحوظة للبغالة في شمالي سوريا فيه الكثير من التبجح؛ وذلك أن اسم البغالة هنا اسم مغلوط، والحقيقة أن حيوان التحميل في هذه المناطق هو نوع من الخيول الرديئة يطلق عليه اسم الكديش. فمن إسكندرون إلى قونية لا أظن أنني شاهدت بغلاً، وعلى التأكيد لم نصادف قط قافلة من البغال، وقد سمعت من ثم أن من غير المفيد أن أسأل عن وسيلة للسفر المريح بدون إزعاج، أو حمل للمسؤولية وعلى نحو موصول وبسرعة حتى أتعرف على خدمي. وإنني عندما أصل إلى قونية فسوف أكون قادرة على صرف قافلتي إذا أحببت وكما أحب.

وإن رجال القافلة من الحلبية سوف يجدون طريقهم إلى حلب بحِمْل آخر، وهكذا ودعت رجالي البيروتيين بسلام.

كان نظام قيادة الرحلة من الآن فصاعداً نظاماً مجهداً، كان رب العمل رجلاً أدرد اسمه فريز، وكان يملك مع أخيه أكبر عدد من حيوانات التحميل في حلب، وبسبب فقدان أسنانه فقد كان يتكلم كلتا اللغتين العربية والتركية على نحو غير مفهوم، وقد أمدني بأربعة من دواب التحميل وركب هو على الخامس من أجل راحته وعلى نفقته، رغم أنه حاول عبثاً أن يجعلني أدفع أجر ركوبه عندما وصلنا إلى قونية، وقد استأجر غلامين بأجرة زهيدة لا تسد الرمق من أجل القيام بكل أعمال المخيم والمسير، وكان يطعمهم بما يسد الرمق أيضاً، وقد سار هذان التعيسان حفاة على أقدامهما. «لقد تزود اللبنانيون المستقلون بحمير من أجل الركوب». مع أن اتفاقهم مع فريز يقتضي تزويدهما حذاءين، ولكنه رفض ذلك فيما بعد حتى تدخلت أنا وهددته بأنني سوف أشتري لهما حذاءين من جيبي، وأقتطع الثمن من أجرته فرضخ، واشترى لهما الحذاءين، واضطررت أن أهتم أيضاً بموضوع التزود بالطعام من أجل التأكد من أن الشابين يأخذان نصيباً كافياً من الطعام يُمكّنهُما من العمل على نحو جيد.

وعلى الرغم من كل جهودي فإن الأولاد المستأجرين كانوا يُطردون في كل مرحلة، وكنت أعاني باستمرار من التأخير الناجم عن الصعوبة في إيجاد آخرين، وأكثر من ذلك من ضرورة تعليم كل زوج مستأجر جديد تفاصيل العمل المطلوب منهما، أين أوتاد الخيام، وأين يجب أن تثبت، وكيف يجب أن يتم توزيع الأحمال، ومئات من الأشياء الأخرى الصغيرة ولكن الضرورية، كما كنت مضطرة أيضاً أن أنخس فريز الذي كان لديه مقدار كبير من الأعذار للتهرب من الأعمال المطلوبة أكثر من أي إنسان آخر في حلب، من أجل أداء واجبه في

مراقبة إطعام خيولي في الصباح وفي المساء، وإلا فإنها سوف تهرب من الجوع شأنها شأن الأولاد، وفي النهاية عندما وصلنا قونيه رمى فريز عبديه في الشارع رافضاً إعادتهم إلى بلدهم أضنة، قائلاً: عندما استطاع أن يغيب عن ناظري إنه كان يستطيع أن يستأجر أجراء أرخص منهما.

وحيث إنني لم أستطع أن أتخلى عن ولدين كانا يبذلان جهدهما ولو بغباء لخدمتي ووجدت نفسي مضطرة لمساعدتهما في العودة إلى بلدهما.

ولألخص الدليل يجب أن أقول أن أولئك الذين يزكون البغالة الحلبية ونظام عملهم البغيض لن يحصلوا أبداً على مخيم مرتب ومنظم حيث يسير العمل بانتظام مثل ساعة (بغ بن)، وبرجال طلقي الوجوه ماهري الأيدي، كما لن يحصلوا على خبرة في مجال رحلة عمل حقيقية، لأن ذلك ممكن فقط عندما يكون هناك خدم يتحلون بالشجاعة أمام المصاعب والمغامرة والأصالة، وأنا أعترف أن خبرتي صغيرة، وأنا أؤكد بكل ثقة بأنها لن تكون أكبر بكثير؛ لأنني سوف أجلب بغالة من بغداد على بعدها ولا أتعاقد مع فريز أو أمثاله مرة أخرى.

شعرت بصراع نفسي عندما تضاعفت مشكلات الرحلة نتيجة لإحباط ميخائيل، فقد أمضى يومين وهو يشرب نخب رفاقه الراحلين الذين قضى معهم فترة رائعة كأعضاء في مخيم كأجود ما يكون المخيمات، وكأن شربه المسرف هذا كافياً لتحطيم تأثير شهرين من الرصانة والاعتدال، ومنذ ذلك الحين لم تفارق زجاجة العرق الضخمة خرجه، ومع أن من الممكن البحث عن الزجاجة في الخرج وكسرها بحجر إلا أنه لم تكن أي قوة مهما كانت كبيرة أن تحول بين ميخائيل وبين الخمارة بمجرد الوصول إلى أي بلدة.

تعلم المحنة عدة دروس: أتطلع إلى الأسابيع الأربعة الصعبة التي قضيناها منذ خرجنا من حلب بمشاعر مختلطة قبل أن تزودنا العناية الإلهية برجل آخر أفضل حيث قسوت على قلبي وطردت ميخائيل، ولكني لم أشعر بكثير من الأسف للتعليم الذي فُرض عليَّ.

بوصولنا إلى حلب انتهت مهمة الحاج محمود، وودعتُه على كره وداعاً حاراً جداً، وزودني والي حلب بشرطي كردي ذي مظهر غير جذاب اسمه الحاج نجيب، وقد برهن بعد التجربة عن شخصية مفيدة وميالة للمساعدة، خبير بالمنطقة التي سافرنا عبرها بصحبته، كما أن خبرته بالناس فيها لا تقل عن ذلك، وتأخرنا بالانطلاق بسبب سُكْر ميخائيل من شرب العرق، وخَرَقُ البغالة في التحميل. كنا في الثلاثين من آذار وكان النهار مشمساً ولأول مرة بدت الشمس حارة على نحو غير سار.

وعندما انطلقنا في العاشرة صباحاً كانت تتقد متوهجة بقسوة فوق رؤوسنا، وخلال مسيرة يوم كامل لم يكن هناك أي مساحة ولو صغيرة من الظل في ذلك الطريق القاحل. وسرنا حوالي ميل على طريق إسكندرون الرئيسي مارِّين بمقهى حوله عدد قليل من الأشجار، سرعان ما انحرفنا بعدها نحو اليسار في طريق قادنا إلى هضاب صخرية جرداء، وبسرعة أصبحت صخرية وقاسية مثلها، وكان طريقنا يتجه شرقاً مع انحراف قليل نحو الشمال.

في الساعة الثانية عشرة والنصف توقفنا للغداء، وانتظرنا وصول المتاع ساعة كاملة، وجدت لدي وقت فراغ لأستعرض فيه السرعة النسبية لمسيرة خدمنا الجدد والقدامى، وحرارة الشمس المحرقة التي لم تكن ملحوظة أثناء

ركوبنا، وبعد سير نصف ساعة مررنا بكوخ «ياقيت عدس» حيث اقترح نجيب أن ننصب مخيمنا، ولكنني قررت أن الوقت ما يزال مبكراً.

وبعد أن أعطينا فريز أوامر واضحة حول الطريق الذي يجب أن يسير فيه والبقعة المحددة بدقة التي سنخيم فيها حثثنا سيرنا أنا والشرطي، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى غبنا عن أنظار الآخرين، وركبنا على طول قعر وادٍ ملتوٍ مارّين بعدة أماكن ملحوظة في الخريطة رغم أنها لا تتعدى كونها كومات صغيرة من الخرب.

وفي الساعة الرابعة انعطفنا صاعدين المنحدر الشمالي للوادي، فوصلنا إلى قرية صغيرة غير ملحوظة في خريطة كيبرت، قال نجيب: إن اسمها قبيشين. وهنا وجدنا وسط جدران قليلة قديمة، وأكوام من النفايات الحديثة مخيماً كردياً. واحد من المخيمات الربيعية التي يقطنها أنصاف البدو مع قطعان مواشيهم في فصل الربيع حيث العشب النضر، كانت جدران الخيام إذا صح أن نسميها خياماً قد بنيت من حجارة خشنة إلى ارتفاع يصل إلى خمسة أقدام، وعمل السقف من شقق شعر الماعز التي رفعت على أعمدة في وسط الخيمة. والتف حولنا الرعاة الأكراد وتحدثوا مع نجيب بلغتهم الخاصة التي كان جرسها مألوفاً على نحو غامض بسبب شبهها باللغة الفارسية، وهم يتحدثون العربية أيضاً برطانة غريبة مليئة بالكلمات التركية.

وجلسنا بعض الوقت فوق كومة من سقط المتاع ننتظر حيوانات النقل حتى أصبحتُ على قناعة رغم تطمينات نجيب بأن تعقيداً ما لابد قد حصل، وإننا سوف ننتظر طويلاً بدون فائدة، وفي هذه اللحظة أعلن شيخ الأكراد أن العشاء جاهز ودعانا للمشاركة في الطعام. وأحد مزايا الحياة في الخارج

بالنسبة لوجبات الطعام الخفيفة هو أنه لا توجد لحظة من النهار لا تكون راغباً أو جاهزاً لتناول الطعام. وهكذا قبلنا بسرور هذه الدعوة.

وسجل الأكراد ليس جيداً في حوليات الرحلات. وتصف التقاريرُ الكرديَّ على أنه شخص متجهم ومشاكس، أما أنا فأجده معطاء، لديه كل الصفات التي تجعله مقبولاً للدخول في المجتمع.

وأُخِذنا إلى أكبر منزل في القرية. كان مضيئاً، جيد التهوية، رطباً ونظيفاً، وبناؤه المتميز يعطيه مزايا المنزل والخيمة. وكان الطعام مكوناً من الخبز الطازج والخاثر وفريكة باللحم والتوابل، وقد مُدَّ على حصيرٍ وجلسنا على البسط حوله، بينما أحاطت بنا النساء للخدمة، وانتهينا من الطعام حوالي السادسة مساء، ولكن القافلة لم تظهر. وتحير نجيب وتعاطف مضيفونا مع حالتنا بعمق، وصرحوا أنهم يرغبون جداً في قضاء ليلتنا عندهم.

وانتهى ترددنا بعد قليل بمجيء ولد صغير راكضاً وقائلاً: إن لديه أخباراً بأن القافلة قد شوهدت ماشية قرب قرية فافرتين على الجانب المقابل من الوادي، وإنها تتجه نحو قلعة سمعان، هدفُ رحلتنا النهائي، ولم يكن لدينا وقت لنضيعه، كانت الشمس قد غابت ولدي ذكرى قوية حول التجوال في الليل عندما كنا في الباره في منطقة ليست متباينة عن هذه المنطقة التي نحن فيها الآن، ولكن قبل أن نسير أخذت نجيب جانباً وسألته فيما إذا كان علينا أن ندفع مالاً لقاء استضافتنا، فأجاب أنه لا يرد في ذهن الأكراد تحت أي ظرف أن يأخذوا ثمناً من ضيوفهم، وقد جعلني كل هذا ألغي الحديث في

الموضوع، وأُوزّع بدلاً عن ذلك بعض المتاليك القليلة على الأطفال الصغار وهو أمر لا يثير الحنق ولا يؤذي المشاعر.

١٢٧ ـ قلعة سمعان

وانطلقنا بقيادة نجيب الذي سار بسرعة على طول الطريق الصخري إلى درجة وجدت صعوبة كبيرة بمجاراته، وكنت أعرف أن كنيسة القديس سمعان العمودي العظيمة تقع على رابية، وأنها جديرة بأن يؤتى لزيارتها من مكان بعيد، مع أن عمود القديس المشهور والذي بنيت حوله الكنيسة قد سقط منذ قرون.

وبعد ساعة من السير المتعثر أشار نجيب إلى الهضاب المعتمة واستطعت أن أميز كتلة تشبه أن تكون قلعة تعترض خط الأفق، وأسرعنا وسرنا نصف ساعة إضافية، ووصلنا القلعة في الساعة السابعة والنصف في ظلام دامس. وبينما كنا نسير عبر الكنيسة الضخمة سمعنا بارتياح رنين أجراس القافلة التي أكدت لنا وصول الخيام، وسمعنا أيضاً صراخ وتوبيخات ميخائيل الذي كان تحت تأثير جرعات العرق غاضباً مثل وحش كاسر، رافضاً أن يعطي البغالة الجدد أي فرصة ولو صغيرة للتعامل مع خيمتي الإنكليزية. وحيث إنني

كنت الشخص الوحيد الذي يعرف كيف توضع أعمدة الخيمة على النحو الملائم، وكيف تُدق الأوتاد، وكيف يُرتب الأثاث فقد اضطررت للقيام بمعظم هذا العمل بمفردي تحت ضوء شمعتين، وعندما انتهيت من ذلك بحثنا عن صندوق الخبز وعلبة السمن من أجل البغالة، وأصدرتُ أمراً إلى طباخنا الثائر أن يعد وجبة المساء المعتادة من الأرز، وقد استُقبل هذا الطلب بعويل يبعث على السخرية، ممتزج باللعنات على الجميع وبأشكال مختلفة، ومن المزعج المناقشة مع رجل سكران، ولكن بأي مشاعر استطعت أن أحتفظ بهدوئي، وإنني لأرجو من الملاك الذي يسجل ما نفعل أن يحذف هذه الملاحظة.

١٢٨ ـ قلعة سمعان

وفي النهاية وبعد أن أصبح كل شيء جاهزا، سرت متجولة في تلك الليلة الربيعية الجميلة عبر باحات الكنيسة الجليلة المتمتعة بالسلام تحت الأسوار حيث كنا نقيم، وسرعان ما وجدت نفسي في باحة دائرية مكشوفة يمكن الوصول إليها من جهات الكنيسة الأربع حسبما تشير البوصلة، وقد أحيطت

هذه الفسحة بأعمدة غير متماثلة أقيمت عليها عدة أقواس ما يزال بعضها قائماً، وقد كان في وسطها فيما مضى من الأيام العمود الذي عاش ومات عليه القديس سمعان [1]. وصعدت متعثرة على كومة الحجارة حتى وصلت إلى الصخرة التي كانت قاعدة للعمود، وهي عبارة عن حجر كبير عريض مشقق مقعر من وسطه بحيث يشبه الإناء، وكان ممتلئًا بماء المطر النظيف الذي غسلت فيه يديّ ووجهي. لم يكن هناك قمر، كانت الأعمدة والأقواس تقف بين الأنقاض ملقية ظلالاً رائعة، وهجع الهواء الناعم ساكناً مثل بركة ساكنة هبطت مرتبكة من الروح وتركته عارية أمام السماء والربيع.

وجلست وفكرت كم هو مضلل الحظ الخادع الذي لعب تلك الليلة مع القديس المتجهم الوجه، فقد أعطى لليلة واحدة تاج أحلامه المرة إلى شخص وردي الأحلام قانع بعمق بأنه سيكون أول الملعونين. وعاينت متأملة نجمة كبيرة كانت تقف لامعة فوق خط الأقواس المهدمة، واتفقنا معاً بأن الرحيل بين الأرض والسماء أفضل بكثير من قضاء اليوم على ظهر عمود.

لقد رُسمتْ أعدادُ خرائط المسح الأمريكية كاشفة على نحو دقيق الجبال الشمالية حتى قلعة سمعان، ولكن لا الأمريكيون ولا غيرهم من الرحالة قد

(١) إن هذه إحدى الخرافات غير المعقولة، فلا يمكن لإنسان أن يعيش عمره على عمود. فهو بحاجة أن ينزل كل يوم عن العمود من أجل أن يأكل ويشرب ويبول ويتغوط، وأظن أنه كان يصعد إلى العمود عندما يجتمع المؤمنون من أجل أن يعظهم على نحو أفضل، ولا أتصور أن يكون هذا العمود عالياً جداً فقد يكون ارتفاعه متراً أو مترين من أجل سهولة السماع والمناقشة والسؤال والإجابة، وهو لا يعدو أن يكون نموذجاً بدائياً لمنبر الكنيسة في الصيف، إذ لا يعقل أن يبقى على سطح العمود في الشتاء تحت المطر والثلج وفي الأيام الباردة؛ لأن المؤمنين لن يأتوا لسماعه في تلك الظروف، وأحسب أنه كان أخرق غريب الطباع، وثمة أسرة حمصية من آل العامودي لا أظن أنهم من سلالته؛ لأنني لا أظن أنه توجد امرأة يمكن أن تقبل العيش معه. (المترجم)

نشر أي مخطط عن منطقة الهضاب الواقعة إلى الشمال الشرقي من هذا القديس(*)، وقد تجولت أنا عبر هذه المنطقة، وزرت معظم الخرب القديمة، فوجدت أنها معروفة لمعظم سكان المنطقة بجبل سمعان، والذي سوف أتحدث عنها بهذا العنوان.

إن الأبنية في جبال سمعان مع جبل باريشا الواقع إلى الجنوب الغربي وجبل العلا الواقع إلى الغرب مباشرة تنتمي جميعاً إلى نفس الطراز المعماري في جبل الزاوية الذي مررت به في طريقي إلى حلب، وقد يكون بالإمكان إيجاد بعض التمايز في طرز البناء بين المجموعة الشمالية والمجموعة الجنوبية.

وقد يستطيع المهندس المعماري الأمريكي السيد بتلر بما له من خبرة واسعة في المنطقتين أن يفعل هذا، ولكن هذه الفروق بالنسبة للملاحظ السريع العابر تعتمد بشكل رئيسي على الظروف الطبيعية، وعلى حقيقة أن المنطقة الشمالية تقع مباشرة وعلى نحو أكبر تحت تأثير إنطاكية، وهي المدينة التي تشكل المنابع الرئيسية للروح الفنية ـ ليس في سوريا فحسب ـ في القرون الأولى للحقبة المسيحية.

فالاستيطان الحضري في جبل سمعان قليل، ومنازل الناس أقل فخامة، ربما لأن الجبال الشمالية أكثر وعورة وغير قادرة على إعالة عدد كبير من الناس الأغنياء، ويبدو أن الاستقرار الحضري قد بدأ بها أبكر، ولكنها وصلت إلى ذروة الازدهار في وقت متأخر نسبياً عن المنطقة الجنوبية، ولكنها لم تعان ما

(*) بعد كتابة هذا الفصل سمعتُ أن السيد بتلر ومجموعته قد مدوا استكشافاتهم إلى شمال قلعة سمعان بعد رحيلي، وأنا أتأمل الحصول على مخططات كاملة عن المنطقة في طبعات مخططاتهم في المستقبل. (المؤلفة)

عانته الأخيرة في القرون التالية التي تلت الاجتياح العربي(*)، وتُظهر أروع كنائس القرن السادس أعظم الزخارف المترفة تقريباً بدون أن تقترب من تلك المطبقة في

١٢٩ ـ قلعة سمعان الباب الغربي

(*) أنا أميل إلى أن أقترح بأن الانحدار الذي حدث فيها يعود في جزء منه إلى الضرائب العالية المرهقة التي فرضها الإمبراطور جوستنيان على المقاطعات الشرقية من الإمبراطورية أثناء جهوده لاسترداد المنطقة الغربية. وإن قراء كتاب ديال العظيم عن جوستنيان سوف يتذكرون كيف انهار النظام السياسي والاجتماعي في المستعمرات تحت ضغط حروبه في إيطاليا وشمال أفريقيا، لقد كان القسم الشرقي من الإمبراطورية هو القسم الأغنى وهو الذي عانى أكثر. (المؤلفة)

الكنائس الجنوبية المتأخرة، وجميعها تعود إلى القرن الذي سبقه، فيما عدا كنيسة بيزوس في الرويحا، ومن الطريف أن نلاحظ أن كنيسة الرويحا رغم أنها بنيت في مرحلة متأخرة قليلاً عن قلعة سمعان فهي أقل زخرفة وأبسط بكثير، وإلى هذه الملاحظة يجب أن يضاف بأنه حتى المنازل الصغيرة في الشمال لا تُظهر تنوعاً كبيراً ولا غِنى بالزخارف مثل ذلك المعتاد في الجنوب(*).

وعندما يقرأ الرحالة الكتابات المنقوشة على الكنائس والمساكن يلاحظ أن التواريخ في الشمال تحسب دائماً حسب تقويم إنطاكية، مما يسمح بالظن بأن يد إنطاكية العظيمة هي التي ترسم عتبات أبوابها ورؤوس أعمدتها وزخارفها والأطواق الحجرية المنقوشة التي تزينها.

١٣٠ ـ قلعة سمعان ـ الباحة المستديرة

(*) لقد لاحظ هذا السيد بتلر في كتابه فن البناء والفنون الأخرى. (المؤلفة)

وقد بنيت كنيسة القديس سمعان ليس بجهود محلية فقط، وإنما إجلالاً للقديس الشهير من كل العالم المسيحي، وربما لم ينجزها البناؤون المحليون فحسب، وإنما بناؤوا ونحاتوا إنطاكية، وإذا كان هذا صحيحاً فمن الصعب أن لا نعزو الكنيسة البديعة في قلب لوزة إلى نفس القوى الخلاقة مثلها في ذلك مثل عشرات من النماذج الأصغر حجماً مثل الكنيسة الشرقية في باقرحا والتي يجب أن تخضع لنفس المؤثرات.

قضيت الصباح في تفحص كنيسة سمعان والقرية الواقعة في أسفل التل التي تحتوي على باسيليقا رومانية تامة وحطام فندق كبير للحجاج.

في وقت الغداء جاء كردي ودود وذكي جداً بحيث اخترته فوراً ليكون دليلي في الأيام القليلة القادمة، والمقاطعة التي يفترض أن أزورها غير ملحوظة في الخريطة أبداً وهي صخرية خالية من الطرقات. كان اسم صديقي الجديد موسى. وبينما كنا راكبين في عصر ذلك اليوم أسرَّ في أذني أنه ينتمي إلى طائفة اليزيديين الذين يطلق عليهم المحمديون اسم عباد الشيطان، مع أنني أتصورهم غير مؤذيين ومعقولين، وموطنهم الرئيسي في الأقسام العليا لما بين النهرين وقد هاجرت أسرة موسى من هناك.

وتحدثنا أثناء سيرنا بالمعتقدات، وتدريجياً وحيث تعارفنا ما يزال وليداً، فقد اعترف موسى أن اليزيديين يعبدون الشمس. قلت: «كائن خاص جداً جدير بالعبادة» وفكرت من أجل أن أدخل السرور إلى نفسه، وتابعت بأن الإسماعيليين يعبدون الشمس والقمر، ولكنه لم يستطع أن يخفي إلا بصعوبة اشمئزازه من التفكير بوثنية كهذه، وقد قادني هذا بيني وبين نفسي للتساؤل

فيما إذا كان العالم قد أصبح أكثر حكمة مما كان عليه عندما جلس القديس سمعان على عموده، ولم تكن النتيجة التي خلصت إليها أكثر جاذبية.

١٣١ ـ قلعة سمعان ـ الباحة المستديرة

أوقف المطر جولاتنا بين القرى عند سفح جبل الشيخ بركات، وهو قمة عالية تقع إلى الجنوب الشرقي من قلعة سمعان، فاندفعنا باتجاه مخيمنا. ولكن الغيوم انقشعت حوالي المساء، وشاهدت وأنا أقف مراقِبةً من الباب الغربي الرائع الهضاب وهي تعكس لون النحاس الأحمر والأسوار الرمادية للكنيسة محولة إياه إلى اللون الذهبي.

أمدني ميخائيل المحبط والتائب والنادم بعشاء رائع. على الرغم من أنني كنت سوف أطرده فيما لو استطاع القديس سمعان أن يؤمِّن لي طباخاً آخر، وفي الواقع فقد مِلت نصف مَيِّل أن أرسل إلى حلب لجلب طباخ جديد، ولكن الشك بإمكان تأمين خادم جيد عن طريق الآخرين، إضافة إلى الرأفة والرغبة

بعدم الإيلام أديا بي إلى نوع من التراخي حاولت أن أُسوّغه بالأمل بأن توبة ميخائيل وعودته إلى السلوك الصحيح لابد آتية. وهكذا قضينا شهراً فوق بركان يثور مزمجراً بين فترة وأخرى، ثم ينفجر في النهاية مسبباً من الآلام ما يكفي.

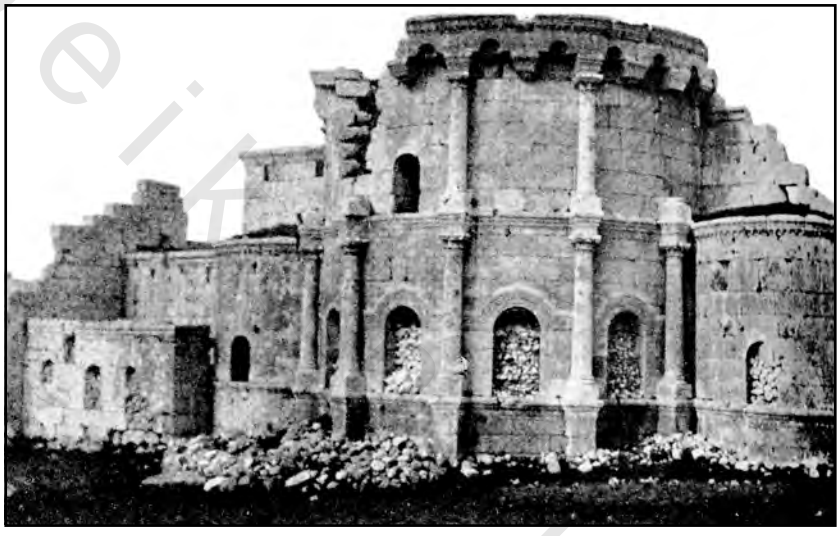

١٣٢ ـ قلعة سمعان ـ الواجهة البارزة

في اليوم التالي انطلقت مع موسى لاستكشاف قرى جبل سمعان الواقعة إلى الشمال، وإلى الشمال الشرقي من كنيسة القديس سمعان، وسرنا شرقاً بخط مستقيم تقريباً قرابة ساعة حتى بورجكة التي تتمتع بكل ملامح تلك القرى الواقعة حتى أقصى الشمال، وهي تحتوي على البرج المربع العالي العام تقريباً في المنطقة. كل الحجارة المستخدمة في البناء ضخمة، وكتل البناء غير موضوعة فوق بعضها في خط مستقيم غالباً، وإذا حصل ووضعت في خط مستقيم فإنها تكون مختلفة اختلافاً كبيراً بالعمق، وللكنيسة واجهة مربعة

١٣٣ ـ قلعة سمعان ـ الباب الغربي

بنيت خارج جدران الصحن، وحلى معمارية محدبة فوق كل نافذة مارة على طول أسكفة النافذة على نحو يتصل من نافذة إلى أخرى، وتنتهي بعد النافذة الأخيرة على نحو حلزوني، كما لو كانت جزءاً من وشاح من النقوش متدلٍ فوق فتحة النافذة مع فضلةٍ تم رفعها نحو الأعلى، وهذه الحلى المعمارية خاصة بالنقوش التزيينية في القرن السادس في شمالي سوريا. وبيوت بورجكة عبارة عن أكواخ بسيطة جداً مربعة بنيت بحجارة مضلعة.

وقد اكتشف موسى قبراً تم فتحه حديثاً قرب الكنيسة، وقد استنبط ببعض الصعوبة وسيلةً للزحف إلى داخله، وحصلت على مكافأة عندما وجدت في بعض التجاويف الداخلية تاريخ ٢٩٢ من تقويم إنطاكية الذي يوافق ٢٤٣ بعد الميلاد، وقد نُقش تحت التاريخ ثلاثة أسطر باللغة اليونانية مطموسة جداً.

١٣٤ ـ نصب جنائزي باق في قاطورة

وركبنا بعد ذلك لمدة نصف ساعة حتى سوركانيا، وهي قرية مهجورة واقعة على نحو رائع على رأس واد صخري قليل العمق يوجد فيه عدد قليل من الأشجار، ومنازلها ضخمة على نحو متميز بشرفات مبنية بحجارة كبيرة مُشكّلة مداخل مسقوفة فوق الأبواب، وأحد هذه المنازل مؤرخ بتاريخ ٤٠٦ بعد الميلاد، والكنيسة مشابهة على نحو دقيق تقريباً لكنيسة بورجكة. ثم مشينا ثلاثة أرباع ساعة أخرى باتجاه الشمال فوصلنا إلى فافرتين حيث بدأت تمطر. فاستترنا بالواجهة البارزة التي كانت كل ما تبقى من كنيسة هي الأكبر بين كل ما شاهدناه حتى الآن، ولكنها بسيطة الصنعة (*)، ويسكن القرية عدد محدود من عائلات الأكراد اليزيديين، وركبنا تحت المطر المنهمر ساعة أخرى باتجاه الشمال الشرقي إلى خرب الشمس، ولكننا لم نستطع أن نفعل شيئاً هناك بسبب رداءة الطقس. وهكذا تابعنا شمالاً بجانب قالوطة إلى برج الكأس حيث وجدتُ خيامي منصوبة في مرج رطب، وكان

(*) كتب بتلر في تقاريره المكتوبة بأن هذه الكنيسة مؤرخة بتاريخ ٣٧٢ بعد الميلاد؛ الأمر الذي يجعلها من أقدم الكنائس المؤرخة في سوريا إذا لم تكن الأقدم في العالم. (المؤلفة)

موسى محبطاً جداً بسبب المطر الغزير، وقال: إن هذا الربيع الماطر يشكل كارثة بالنسبة لحقوله فهو يجرف التربة من الأراضي العالية إلى الوديان، وإن عملية تعرية التربة المستمرة قد أنقصت كثيراً من خصوبة الأراضي في شمالي سورية، وهي ما تزال مستمرة.

١٣٥ ـ خراب الشمس

في برج الكاس كان ثمة برج مربع على قمة تل، وبعض المنازل التي أصلحت وأُعيد سكناها من قبل الأكراد، وقد قرأت على أحد عتبات الأبواب تاريخ ٤٠٦ بعد الميلاد، ولكن ثمة نقشاً على باب آخر لم أستطع قراءته، وكانت نهاية هذه الحجرة مطمورة تحت زاوية بيت أعيد بناؤه، ولكني بإمعان النظر فيه استطعت أن ألحظ نقشاً صغيراً في أقصى طرفه الظاهر، وقد قال مالك المنزل: إن النقش يمثل بدون شك السيدة مريم، ويمثل هذا إضافة غريبة ضئيلة لفن النحت في شمالي سوريا مثلما هو تجديد لاهوتي، وقد عبّرت عن أسفي لعدم قدرتي على معاينته على نحو أفضل، وحالاً أحضر صديقي معولاً وكشط زاوية منزله فتكشفت الصورة المنحوتة عن نسر روماني.

١٣٦ ـ خراب الشمس ـ نقش في قبر

عدت بصحبة نجيب وموسى إلى القرية التي سبق ومررت بها أثناء المطر في اليوم السابق، وتركنا نجيب مع خيولنا في قالوطة وذهبنا إلى خراب الشمس على القدمين، كان الطريق صخرياً وعراً جداً إلى درجة رغبت معها بتجنيب حصاني في السير عليها مرة أخرى.

ويتألف خرب الشمس من كنيسة جميلة يبلغ طولها من الباب الغربي حتى وتر الواجهة البارزة إحدى وعشرين خطوة، وقد سقط الجدار الخارجي المتجه من الشمال إلى الجنوب تاركاً خمسة أقواس واقفة في كل جهة من الصحن، مع منور جُهّز بعشر نوافذ صغيرة رأسية مستديرة. قطعة رائعة تشبه مقصورة مسرح منفصلة.

وأبعد قليلاً في أعلى التل تقع كنيسة ضخمة ليس لها أجنحة، ولها واجهة بارزة بنيت خارجاً، وسُقفت على نحو نصف مقبب بحجارة مسطحة مربعة تمثل بيت المعمودية في القرن الخامس الميلادي المشابه لدير قيتا(*)، وعلى جانب التلة وجدنا عدداً من القبور المنحوتة بالصخر، وقد سُررتُ إذ عثرت بواحد منها على نقوش منحوتة بارزة، ففي التجويف إلى يسار الباب صور منحوتة نحتاً فجاً لأربعة أشخاص قد رفعوا أذرعهم نحو الأعلى بوضعية الصلاة، كما أن هناك شخصاً منحوتاً في الزاوية المظلمة من الجدار الصخري، يرتدي قميصاً وقبعة بارزة، ويمسك شيئاً غريباً يشبه السلة في يده اليمنى.

ثم عدنا إلى قالوطة وزرنا كنيسة منعزلة في مرتفع من الأرض يقع غربي القرية، وشاهدنا على الجدار بجانب الباب الجنوبي كتابة يونانية طويلة، وقد فصل الصحن عن الجناحين بأربعة أعمدة من كل جانب، بعض هذه الأعمدة (إذا حكمنا من خلال القطع المحطمة) محلزن وبعضها بسيط.

وينتهي الرواق قبالة زاوية الواجهة البارزة بأعمدة معشقة محلزنة تحمل تيجاناً كورنثية جميلة، والواجهة البارزة وتزييناتها المضافة موجودة كلها داخل الجدار الخارجي للكنيسة، ويظهر الباب الغربي قوساً منقوشاً قائماً على ركائز فوق أسكفة الباب المهدمة، وهذه الأسكفة مزينة بخط من المنمنمات. وإلى الجنوب من الكنيسة ثمة بيت معمودية منفصل بمساحة داخلية تعادل تسع أقدام مربعة، ومازالت الجدران تحمل الصف الأول من القنطرة الحجرية، ولابد أن الكنيسة قد سقفت بالقرميد؛ لأنني وجدت بعض القطع مرمية في الصحن، وهناك سور ضخم يحيط بكل من الكنيسة وبيت

(*) بتلر. فن البناء وغيره من الفنون. صفحة ١٣٩ (المؤلفة)

المعمودية، ويوجد في القرية الواقعة أسفل التل كنيستان أبعاد الغربية منهما ٣٨ × ٦٨ قدماً والأخرى ٤٨ × ٧٠ قدماً. وتشير الحلى المعمارية المحيطة بأبواب كلتا الكنيستين إلى زمن لا يقل عن القرن السادس. كما كان هناك بيوت بشرفات حجرية.

١٣٧ ـ تاج عمود فوق في كنيسة قالوطة

وعلى بعد ساعة ونصف إلى الشمال الغربي من قالوطة تقع قرية البارد، وهي الأكبر والأجمل في جبل سمعان، وقد سكنها الأكراد الآن على نحو جزئي، وهناك وجدت مخيمي منصوباً في ساحة مكشوفة مقابل نصب جنائزي مؤلف من مظلة حجرية تحملها أربعة أعمدة مستندة إلى منصة مرتفعة عن الأرض.

وإلى جانبها قبر حجري ضخم مع مجموعة من القبور الأخرى المنحوتة جزئياً والمبنية جزئياً، وعاينت كنيستين في وسط البلدة، والصحن في الكنيسة الأولى بطول ٦٨,٦ قدماً قد تم فصله عن الجناحين بأربعة أعمدة بعمق ست أقدام من الشرق إلى الغرب، مع فرجة بين الأعمدة تعادل / ١٨ / ثماني عشرة قدماً، وعرض الصحن /٢٣/ ثلاث وعشرون قدماً، وعمق الواجهة البارزة /١٢ / اثنتا عشرة قدماً. ويبرهن عرض الفرجة بين الأعمدة على أن الكنيسة قد بنيت في وقت متأخر نسبياً، في القرن السادس أو حول ذلك.

١٣٨ ـ ظلة قبر حجرية

والكنيسة الثانية أكبر وهي بطول ١١٨,٦ قدماً، وبعرض ٧٣,٦ قدماً، ولكنها مهدمة بالكامل فيما عدا الجدار الغربي، وجزء من الواجهة البارزة. وإلى الشمال يوجد كنيسة صغيرة بواجهة بارزة سليمة تماماً، وبالقرب منها ثمة قبر حجري مما يوحي بأن الكنيسة الصغيرة ربما كانت مقبرة ضخمة. وتحتوي النهاية الشرقية للبلدة على مجمع أبنية مضلعة تشتمل على سياج مربع في داخله غرفة مربعة في وسطها قبة ربما كانت قبراً.

وفي النهاية الغربية للبلدة ثمة برج جميل بجانبه بعض البيوت الكبيرة والسليمة، وهناك كنيسة صغيرة تقع بينه وبين القسم الرئيسي من البلدة، وكان هناك بجانب مخيمي بناء غريب له واجهتان غير نظاميتين بنيتا على الجدار الشرقي، وأنا أظن أنه يعود إلى ما قبل العصر المسيحي، ويلاحظ أن الجدران واقفة حتى بدء القنطرة التي ماتزال سليمة تماماً. وعندما كنا أنا وموسى نقيس ونرسم البناء كان ثمة رجلان يرتديان ثوبين أبيضين طويلين، ويضعان على رأسيهما تربانا يراقباننا باهتمام شديد، وقد كانا ـ كما قال موسى ـ موظفين حكوميين جاءا إلى جبل سمعان ليحصيا السكان من أجل فرض ضريبة الرأس.

كان اليوم التالي من أكثر الأيام سوءاً كما أذكر، قبة من غيمة كبيرة كثيفة امتدت عبر السماء على نحو مفاجئ فوق جبل سمعان صانعة فوقنا ظلاً رمادياً بارداً، في الوقت الذي كانت فيه المناطق الواقعة شمال وجنوب الجبل وكذلك السهل الواقع بعدها يستحمون جميعاً بشمس رائعة، وركبنا شمالاً حوالي ساعة حتى قرية قيفار، وهي قرية كبيرة قرب الحافة البعيدة لجبل سمعان.

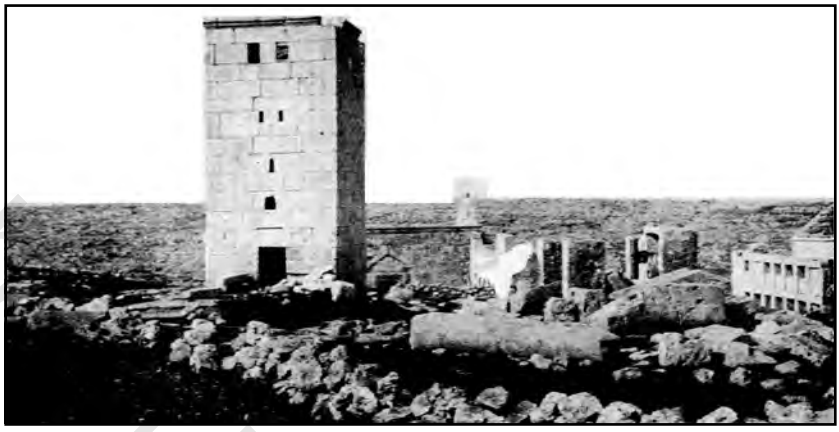

١٣٩ ـ برج البارد غربي البلدة

وخلف وادي عفرين ـ الذي يربط بين الهضاب والمنطقة الشمالية الغربية ـ ترتفع الأكتاف العظيمة الأولى لجبل كيوار داغ، وقد لاحظ موسى أن الوادي والتلال الواقعة بعده لا تحتوي على أي خرب أثرية، وأن هذه الخرب تنتهي على نحو مفاجئ عند حدود جبل سمعان، ويبدو وكأن الحضارة السورية لم تخترق المناطق الأبعد إلى الشمال. وليس من السهل الإجابة عن السبب.

يوجد في قيفار ثلاث كنائس مهدمة جداً، ولكنها تبدي آثاراً وزخرفات معالجة على نحو رائع، كما أن ثمة عدداً قليلاً جداً من البيوت الجيدة. ويوجد ظله قبر تشبه تلك التي رأيناها في قرية البارد.

وهناك عدد كبير من السكان الأكراد، وعدنا إلى قرية البارد، ثم انحدرنا جنوباً بشرق إلى قرية كفر نبو بعد أن ركبنا ساعة ونصف تحت رياح قارصة ومطر غزير، كان ثمة نقش سوري على أسكفة باب، وشواهد قبر أو قبرين مكتوب عليهما بالخط الكوفي، ومنزل رائع أعيد ترميمه جزئياً، ولكني كنت أعاني كثيراً من البرد بحيث لم أعط هذه الآثار ما تستحقه من الاهتمام. كنت

أرتجف حتى العظام ولم أجد الشجاعة باستمرار المحاولة بالاستكشاف في هذه الرياح الشديدة. وسرت مباشرة إلى مخيمي في قرية باسوفان التي تبعد ساعة من الركوب عن كفر نبو تاركة استكشاف مواقع خربتين إلى الجنوب. كان بيت موسى في باسوفان، وقابلنا والده في حقل الذرة عندما صعدنا إلى القرية.

«الله يعطيك العافية» صاح موسى محيياً أحد العاملين في الحقل التحية المناسبة.

«الله يعافيك!» أجاب العامل. رافعاً عينيه القاتمتين باتجاهنا.

«إنه ختيار» أوضح موسى بينما كنا نتابع الركوب «ولكن المصائب حلت به وقد كان فيما مضى من الأيام أجمل رجل في جبل سمعان وأفضل رام».

قلت: «ماذا أصابه».

أجاب: «لقد قُتل أخوه في عداوة دامية منذ عدة شهور، ولم نعرف شخصية القاتل، ولكن ربما كان أحد أفراد عائلة عروسه لأنه أخذها رغماً عنهم».

سألتُ: «وماذا حدث للعروس؟».

قال: «عادت إلى أهلها، ولكنها بكت كثيراً وبمرارة».

وتُتَّخذ باسوفان كمَصيَف من قبل بعض يهود ومسيحيي حلب الذين يأتون للسكنى في بيوت الأكراد في شهور الصيف الحارة، ويقطن مالكوا هذه البيوت أثناء ذلك في الخيام، وثمة بعض الأشجار الكبيرة واقعة جنوب القرية وهي تظلل مقبرة كبيرة تحتوي على الأغلب قبور بعض المسلمين الذين يُجلَبون للدفن فيها من القرى المجاورة.

ويفخر الوادي في الأسفل بربيعه الشهير وهو ربيع لا يتعرض للجفاف حتى في سنين الجدب عندما تجف أو تستنفد الينابيع المجاورة.

كان الأكراد يزرعون المنحدرات المجاورة للقرية تبغاً، وكانوا يبيعونه بأسعار عالية نظراً لجودته، حتى أنشأت الحكومة شركة الريجي، وأَخذتْ تدفع للأكراد أسعاراً متدنية جداً بحيث أصبحوا لا يحققون أي مربح جَدي، وبما أنه لا يوجد هناك سوق آخر فقد ماتت صناعته وأهملت زراعته، ولم تعد الحقول تزرع إلا قليلاً من الذرة، قال موسى في الختام: «ونحن الآن جميعاً فقراء».

لم يكن قد مضى على وجودي في المخيم أكثر من ساعة حتى انقطع المطر وأشرقت الشمس معيدة لنا حيويتنا في نفس الوقت، كان ثمة كنيسة كبيرة في باسوفان قد حُولت في مرحلة ما إلى قلعة، بإضافة ثلاثة أبراج، وكان ما بقي من البناء الأصلي يمثل عملاً رائعاً؛ وقد زخرفت الأعمدة المعشقة مع الواجهة البارزة بأخاديد محلزنة ـ وهذا أول نموذج أراه من هذا الطراز ـ والتيجان الكورنثية كانت منحوتة على نحو عميق وجيد.

وقد أراني موسى نقشاً سريانياً في الجدار الجنوبي الذي نسخته بمجهود كبير ونجاح قليل، لقد أخذ الأشرار كل النقوش السريانية، أو وهبوها لجميع الرحالة بفطنة أفضل، وحيث إنه كان ما يزال هناك ساعتان من ضوء النهار فقد قررت أن أصعد الهضاب إلى قرية برج حيدا وقرية كفر لاب اللتين

تجاوزتهما في الصباح بسبب البرد والمطر، وقد رافقني موسى وأخذ معه شريكه ـ هكذا قدمه لي ـ ولكن بأي شيء يشاركه لا أدري [1].

١٤٠ ـ موسى وعائلته

وبرج حيدا جديرة بالزيارة، وهي تحتوي على برج مربع وثلاث كنائس، إحداهن مصانة على نحو فائق جداً مع بناء جميل ملحق به ربما كان مقراً لرجال الدين، ولكن الرحلة جديرة بالذكر بشكل رئيسي بسبب الحديث الذي دار، كنت قد تعاقدت مع موسى في الأيام الثلاثة الماضية التي قضيناها معاً، وقد تكونت بيننا صداقة كانت من قبلي تعود لشكري للخدمات التي قدمها لي، مضافاً إليها التقدير الحار للابتسامة المشرقة التي كانت تمتزج بأعماله،

(١) الحقيقة أن موسى هذا لص آثار، والسائحة تعرف هذا، وهو إذ يرحل معها لا يفعل ذلك لوجه الله أو إعجاباً بقوامها، وإنما للتعرف مثلها على الآثار، ومعرفة ما يهم الرحالة والسياح حيث يتعاونون معاً على سرقة الآثار. (المترجم)

وقد وصلت الإلفة بيننا إلى درجة أمَّلت معها أن ينورني ببعض مبادئ المذهب اليزيدي؛ لأنه مهما كانت العادة في أوربا، فإن من الأدب في آسيا أن لا تسأل إنساناً عن عقيدته ما لم تكن علاقتك به حميمية من وجهة نظره، كما أن ذلك غير مناسب أو مفيد، فهو يثير الشكوك والارتياب دون أن تحظى بإجابة شافية، وقد بدأتُ السؤال بطريقة لطيفة ـ بينما كنا نجلس على باب كنيسة صغيرة في كفر لاب ـ حول ما إذا كان لدى اليزيديين مسجد أو كنيسة.

أجاب موسى: «لا.. ليس لدينا، نحن نعبد الله تحت السماء، فكل يوم عند الفجر نتعبد للشمس».

قلت: «وهل لديكم إمام يؤمكم في الصلاة؟».

أجاب: «في الأعياد فقط، يؤمنا الشيخ بالصلاة، ولكن في الأيام العادية كل إنسان يصلي لنفسه، ونحن نعتبر بعض أيام الأسبوع أيام سعد وبعضها الآخر أيام نحس، فالأربعاء والجمعة والأحد أيام سعد، أما الخميس فيوم نحس».

قلت: «لماذا؟».

قال موسى: «أنا لا أعرف، إنه كذلك».

سألت: «هل أنتم أصدقاء للمحمديين أم أعداء؟».

قال: «هنا في المنطقة حول حلب نحن قلة، وهم لا يخافوننا، ولذلك فنحن نعيش بسلام معهم، ولكن في كل سنة يأتي من الموصل شيخ عالم ليجمع منا الزكاة، وهو يتعجب لرؤيتنا نعيش كالإخوان مع المسلمين، ففي الموصل حيث هناك عدد كبير من اليزيديين يوجد عَداء كبير بينهم وبين المسلمين حسبما

يقول الشيخ، وفي الموصل لا يخدم اليزيديين في الجيش، بينما هنا نحن نخدم كالآخرين وأنا نفسي كنت جندياً».

سألت: «هل لديكم كتاب مقدس؟».

قال: «بدون شك، وأنا سوف أخبرك ما تقول كتبنا: عندما تقترب ساعة نهاية العالم يظهر حادود ومادود في الأرض، وقبل أن يظهر يصغر جسم الإنسان حتى يصبح أصغر من ورقة العشب ـ ولكن حادود ومادود عملاق ـ ولكن في سبعة أيام أو سبعة شهور أو سبع سنين سوف يشرب كل مياه البحار والأنهار وتصبح الأرض قاحلة».

«ثم» قال الشريك الذي كان يتابع كلام موسى باهتمام: «تثب من خلال التراب دودة عظيمة فتفترس حادود ومادود».

تابع موسى: «وبعد أن تأكله، يحدث فيضان يستمر سبعة أيام أو سبعة شهور أو سبع سنين».

قاطع الشريك: «وتغتسل الأرض وتصبح نظيفة».

قال موسى: «ثم يأتي المهدي، وسوف يجمع الأديان الأربعة اليزيدية، والنصارى والإسلام واليهود، ويطلب من كل نبي من أنبياء هذه الديانات أن يجمع أتباعه، فيجمع يزيد اليزيديين وعيسى المسيحيين ومحمد المسلمين وموسى اليهود، أما أولئك الذين تحولوا من دين إلى آخر أثناء الحياة، فإنهم يوضعون في النار ليعرف الدين الحقيقي الذي يخفونه في صدورهم، وهكذا يعرف كل نبي جماعته وتلك هي نهاية العالم».

قلت: «وهل تعتقد أن كل أصحاب هذه الديانات متساوون؟».

وأجاب موسى (ربما مسايرة): «نحن نعتقد أن النصارى واليهود سيكونون مساوين لنا».

سألت: «والمسلمون؟».

قال موسى «نحن نظن أنهم سيصبحون خنازير».

هذه هي مبادئ عقيدة موسى، ولن أتجرأ على قول ما تشير إليه، ولكن ربما كان حادود ومادود هو كو ج ما كوج إذا كان لي أن ألقي بعض الضوء على القضية [1].

كانت الشمس تحاول الغروب عندما نهضنا من مجلسنا على عتبة الكنيسة وبدأنا الصعود باتجاه منزلنا على خرائب كفر لاب، كان ثمة منحدر قاس من الأرض بعد القرية، ولاحظت وجود مغاور كبيرة تحت الصخور عند قمة التل، وتوقف شريك موسى أمامها وقال: «في مثل هذه الأماكن نحن نبحث عن الكنوز».

قلت: «وهل وجدت كنزاً».

قال: «أنا لم أعثر على أي كنز ولكن كثرة من الناس قالوا إنهم عثروا. وقد قالوا: إن راعياً صغيراً أضاع معزاه، وذهب يبحث عنها على التلال، ووجدها في النهاية بأحد الكهوف، ووجد الكهف مليئاً بالنقود الذهبية، فأغلق فم الكهف ورجع مسرعاً إلى بيته ليجلب حماراً يحمل عليه الذهب، وفي عجلته

(١) لا أدري فيما إذا كانت هذه الخرافات موجودة فعلاً عند اليزيديين، أو إنه من خيال المؤلفة. (المترجم)

ترك المعـزاة في الكهف، وعندمـا عـاد لم يجـد المعـزاة ولا الكهف ولا الذهب الذي أخذ يبحث عنه».

قال موسى: «وفي وقت آخر كان ولد نائماً بين خرائب كفر لاب وحلم في منامه أنه اكتشف كنزاً كبيراً في الأرض، وأنه قد حفر من أجل الوصول إليه

١٤١ ـ باسوفان ـ امرأة كردية

بيديه، وعندما استيقظ وجد يديه مغطاتين بغبار الذهب ولكنه لم يستطع أن يتذكر المكان الذي حفر فيه».

ولا تقدم أي من هذه الحكايا معلومات مقنعة تبرر إرسال بعثة استكشاف للبحث عن الكنوز في جبل سمعان.

وعندما وصلنا إلى باسوفان سأل موسى فيما إذا كانت أخته وردة تستطيع أن تسلم عليّ، «وإذا كان من الممكن أن تقنعيها بالزواج» أضاف.

سألت: «أن تتزوج؟، ومن هو الذي سوف تتزوجه؟»

قال موسى بهدوء: «أيّ شخص لقد أعلنتْ أنها تكره الزواج، وأنها سوف تبقى في بيت أبيها، ونحن لا نستطيع أن نزحزحها عن موقفها، وهي عذراء شابة وجميلة».

لقد بدت جميلة جداً وخجولة عندما كانت تقف بباب خيمتي بلباس النساء الكرديات الجميل ـ ممسكة بكلتي يديها وعاء قشدة الحليب ـ، هدية سموحة لي، وأعترف أنني لم ألح كثيراً على قضية الزواج؛ ظانّةً أنها تحسن إدارة حياتها على نحو أفضل بدون زواج. وجاءتني بخبز طازج للإفطار في صباح اليوم التالي، ورجتني أن أزور بيت والدها قبل أن أغادر.

وقد فعلت هذا، ووجدت الأسرة كلها؛ الأبناء والزوجات والأطفال الكبار قد تجمعوا كلهم للترحيب بي، وعلى الرغم من أنني كنت قد أفطرت قبل قليل إلا أن الأب الكبير أصر على وضع الخبر والكريما أمامي وقال: «هذا رباط الخبز والملح بيننا».

كانوا أناساً حسني التربية حسني الوجوه، قد أشرقت وجوههم بالابتسامات التي كان من أكثرها جاذبية ابتسامة موسى، ومن أجلهم سوف أُكنّ من الآن فصاعداً احتراماً كبيراً للعنصر الكردي.

obeikandl.com